فصول الكتاب

	الصفحة
المدنية	١
المرأة والرجل	١٠
تعقد الموضوع وصعوبة الحل	١١
الاسرة الاولى	١٣
الزواج الموحد	٢٥
مصير الاسرة الشرقية	٢٨
الانقلابات الاقتصادية	٢٩
تحرير الافكار	٣١
هل نتبع الغرب	٣٢
الاسرة الشيوعية	٣٤
الدولة والحكومة والرعية	٤٠
الدولة والاسرة	٤٠
اصل الدولة	٤١
نشوء الاوضاع الحكومية	٤٢
بناء الدولة	٤٤
تأثير الدين في تأسيس الدولة	٤٥
معرض المذاهب السياسية	٤٧
افلاطون	٤٧
ارسطو	٤٩
الخلافة الاسلامية	٥٠
ابن خلدون	٥٢
في القرون الوسطى	٥٤
مكيافللي	٥٤
هوبس	٥٦
لوك	٥٧
روسو	٥٧
العظامية الانكليزية	٥٩
المصلحة الفردية	٦٢
هيجل وماركس	٦٨
مذهب النشوء والاوضاع السياسية	٧٠
السياسة وعلم الانسان والنفس	٧١
الحرب العالمية والثورات	٧٣
الاشتراكية والبولشفية	٧٣
الفاشستية والنازية والكمالية	٧٩
النهضة التركية الكمالية	٨٦
اصلح اشكال الحكم في العالم العربي	٩١
حاجتنا الى التجانس	٩٧
الوطنية	١٠٤
عوامل التجانس	١٠٨
العوامل المعنوية ووحدة الامم	١١٥
الزعامة وصفات الزعيم	١٢٢
الثورة	١٢٨
الدين والثقافة الحاضرة	١٤٥
اصل الشعور الديني	١٥٤
الدين والنهضة الاخلاقية الحديثة	١٦١

ومن الامثال التي نضربها على ذلك ان الملك عبد العزيز بن سعود ملك نجد والحجاز اليوم كان في بداءة القرن الحاضر لاجئاً الى الكويت بسيطاً عند اميره الشيخ مبارك بن الصباح لان آل الرشيد كانوا قد احتلوا مواطن آبائه واجداده وانتزعوا السلطة منهم وابن السعود هذا هو رجل شجاع ذو عزيمة صادقة وطموح وثاب فوطد النفس على العودة الى نجد واخراج آل الرشيد المغتصبين منه فدبر امره في ليل حتى تمكن من اغتيال عامل الرشيد في فراشهِ وبمساعدة كمين ابقاهُ خارج القصر تمكن من ترسيخ قدمه في البلاد ثم اخذ ملكه في التكامل والاتساع الى ان امتد الى البحر الاحمر غرباً وسورية والعراق شمالاً ولكن هذا الاتساع ما كان ليتم لولا المنافع التي جناها الغزاة الفاتحون من جنوده واعوانه . فمزج هذه المنافع الاساسية بدعوة روحية جذابة كالدعوة الى التنزيه ومحاربة الشرك ولا سيما الاستيلاء على اموال المشركين جزاءً لهم كل ذلك ألَّف من همج النجديين خصوصاً ممن يدعون « غطغطاً » جيشاً لجباً متحمساً اكتسح هذه الاصقاع المترامية الاطراف ولم يتورع ان يطبق على الكثير

من سكانها قاعدة القتل العام — ولو على ابواب مكة — باسم التوحيد والتطهير من الشرك ! فالقارىء يرى من هذا المثال الملموس كيف ان الباعث الاول على تأسيس هذه المملكة المترامية الاطراف هو باعث طبيعي يرتكز على شعور بالثأر متأصل في العرب ، فلما ذر عليهِ القائمون به فلفلاً وبهاراً من دعوة اخلاقية خيالية كمالية صلح طعمه وصار لذيذاً حتى في افواه الآنفين المتأنقين ناهيك بالشرهين الشرسين . ولاحظت في المدد التي اقمتها في الصحراء ان كل دعوة كائنة ما كانت متى وضعت عليها التوابل الروحانية المقبلة وكان من ورائها نفع مادي تلاقي رواجاً عظيماً ولا سيما عند القبائل التي تشكو القلة وتعاني المحل . ولا نخطىء اذا نحن قلنا ان المؤمنين بمثل هذه الدعوة عن اخلاص طاهر لا تمازجه المنافع المادية هم الاقلية . واما سواد الناس فهم لا يدركون الكمال عادةً الاَّ اذا كان مصلّحاً طعمهُ بالمنافع فلا يصلون لله مثلاً الاّ اذا اعتقدوا ان تحت السجادة في الدنيا ديناراً وهاجاً وفي الآخرة قصراً حافلاً بالحور العين

الخلافة الاسلامية

وتتجلى المذاهب السياسية المتنوعة والآراء التي اشار اليها افلاطون خير التجلي في تاريخ الاسلام عامة والعرب منهم خاصة. وليس من المتعذر على الباحث مثلاً ان يرى المبادىء السياسية مخلوطة في الجيل الواحد والعمل الواحد خلطاً متماسكاً متشابكاً . فانتخاب اول خليفة ليتولّى زمام المسلمين في دينهم ودنياهم هو عمل ديمقراطي في مبدئه ولكنه يختلف عن الاساليب الديمقراطية الحاضرة بحصره الانتخاب في اهل الحل والعقد بصورة مبهمة ليس فيها قاعدة يركن اليها ومعنى اهل الحل والعقد هو النخبة المنتخبة وهي الطبقة الارستقراطية طبعاً فهذا الحصر هو اقرب اذن الى الارستقراطية منهُ الى الديموقراطية والعامة كانوا بعيدين عن التدخل في شأنهِ وليس لهم صوت نافذ في اقراره او في رفضه لأن القواعد التى طبقت منذ اليوم الأول لم تعين لهؤلاء العامة مقاماً في الاقتراع أو في الانتخاب بل اعتبرتهم كما اعتبرهم افلاطون اداة تساق من غير ارادة ولا اختيار . وكان الخليفة والحق يقال رئيس جمهورية إلاّ انهُ تمتع بحقوق لا يحلم بها (هوفر) في الولايات المتحدة . وقد تجلت هذه الحقوق واشتدت عندما صارت الخلافة ملكاً متوارثاً وصار اصحابها يدعون الوكالة عن الله في كل شيء ، يدلك على ذلك خطبة للمنصور بمكة جاء فيها «ايها الناس انا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، اعمل فيه بمشيئته وارادته واعطيه باذنه ، فقدجعلني عليه قفلاً ان شاء فتحني لاعطائكم وقسم أرزاقكم وانشاء ان يقفل عليَّ أقفلني» ، ولم يعدم الخلفاء من الفقهاء من جوّز لهم مثل هذه الحقوق كما فعل صاحب « مطالع الانوار » بقوله عن الخليفة ان له حقَّ التصرف «في رقاب الناس وأموالهم وابضاعهم» . على انهُ مع كل النفوذ الذي كان للخليفة لا يجوز ان يدعى «مطلقاً» ابداً ، لأن السلطة ليست له وانما هي للدستور — للشريعة التي كان حامياً لها ومسؤولاً عن تطبيقها ، وكانت الحيدة عنها اعوجاجاً لا يأبى المسلمون — ولو نظريًّا — ان يقوّموه بسيوفهم . فاذا كان الاستبداد هو ان يعمل صاحب الامر بمشيئته وبمقتضى هواه ويدعي انه هو الدولة كما كان حال الملوك المستبدين في بلاد الغرب فالخليفة بهذا المعنى لم يكن مستبدًّا وانما اعطى لنفسه من الحق في فهم الدستور وتأويله وتطبيقه ما يخولهُ قوة صارمة . ولو اردنا أن نجمل الحالة التي كان عليها المسلمون في الصدر الاول بكلام مألوف في عصرنا لقلنا انهم انتخبوا رئيس جمهورية الى أجل غير مسمى بطريقة انتخاب محدودة تولتها الطبقة الارستقراطية وهم أهل الحل والعقد وخوّلوه في القضاء والتنفيذ سلطة لا حد لها وجعلوه مسؤولاً عن الدستور بطريقة عنيفة تكون حياته فيها عرضة للخطر ، ولما

كانت الطريقة البارلمانية مجهولةً في تلك الاعصر فمحاولة تعيين هذه التبعة او المسؤولية كثيراً ما أدت الى الفتن والاضطرابات وسفك الدماء بين المسلمين لانهم لم يكونوا عارفين بحلٍّ سلمي يرضاه الجميع أو الاكثرية المطلقة في معالجتها . وعلى القارىء أن يتذكر ان الخليفة مهما كان قادراً وعظيماً لايستطيع من الوجهة النظرية أن يغير شيئاً في الشريعة لان سلطتها مطلقة لاحد لها تصغر أمامها كل سلطة بل دائرته ودائرة قضاته وعماله محصورة في تأويلها وتطبيقها . ويجد علماء السياسة لذة كبيرة أن يروا بعض الكتاب المسلمين المتقدمين يذهبون الى أن الامة هي مصدر السلطة التي يتمتع بها الخليفة كما فعل أبو بكر الكاساني المتوفي سنة ٥٨٧ والمدفون بظاهر حلب. فقد ذهب في كتابه «البدائع» إلى أن الخليفة بمنزلة مندوب أو رسول عن المسلمين لذلك اذا عُزل او خُلع لسبب من الاسباب لم ينعزل قضاته بل هم على أعمالهم قائمون وذلك لان «القاضي لا يعمل بولاية الخليفة وفي حقهِ بل بولاية المسلمين وحقوقهم ، وانما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم ،لهذا لم تلحقهُ العهدة كالرسول في سائر العقود ، والوكيل في النكاح ، واذا كان رسولاً كان فعله بمنزلة فصل عامة المسلمين »(١)

ولئن كانت الخلافة في بدء الاسلام نظاماً جمهوريًّا ارستوقراطيًّا فقد تحولت في زمن بني امية الى ملك واصبحت دمشق الشام على ايدي الخلفاء او الملوك الامويين حصن العروبة الحصين وكانت الرابطة في الشرق كما كانت في الغرب رابطة دينية والاسلام كما هو معروف دين اممي ارسل الى جميع البشر على السواء الاّ أن كثرة الداخلين فيهِ من الاقوام الاخرى جعلت مركز العرب وحماته حرجاً خصوصاً لانهم كانوا بعد في دور التأسيس والفتح،ولولا هذه النعرة العربية التي تجلت في بني امية لكان الخطر على الدولة الحديثة خطراً حقيقيًّا ولكان من المتعذر التنبؤ بما عسى ان يحدث يومئذٍ من التحولات في النشوء الديني في الشرق الادنى

ومما يسترعي الانتباه في امر الخلافة ويشير الى معنى من المعاني السياسية الحديثة المهمة عهد الطاعة للخليفة فقد اطلق المسلمون على هذا العهد اسم البيعة وكانوا « اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد فاشبه ذلك فعل البائع والمشتري »او اشبه « المقاولة الاجتماعية » المبنية على فكرة التراضي والتي شرحها (جان جاك روسو) وجعلها الاساس المشروع للحكومات فكانت سبباً للثورة الفرنسوية . ولا يضير هذه المبايعة الحرة ما أصابها من الاكراه في بعض الاحوال والانتقال من المصافحة بالايدي الى تقبيل الارض او اليد او الرجل او الذيل او غير ذلك من علامات الخنوع على الطريقة الغريبة عن العرب والتي دعاها ابن خلدون « كسروية »(٢) لان الاصل هو التعاقد الحر كما هو ظاهر اولاً من اللفظ الدال على البيع والشراء وثانياً من العمل الذي يدلّ على التراضي بالمصافحة يداً بيد

(١) الاسلام واصول الحكم ص١٠ (٢) « المقدمة » ص ١١٧١

الصدر الاول ومنها الخلافة طبعاً ليست من الدين في شيء فالمسلمون اليوم أحرار في نظره غير مقيدين في انتخاب المنهاج السياسي الذي يلائم احوالهم ، ومن هؤلاء الكتّاب السيد علي عبد الرازق فقد ذهب في رسالتهِ « الاسلام وأصول الحكم » إلى ان الخلافة وضع سياسي حدث في زمن ابي بكر وان لقب خليفة رسول الله « كان سبباً من أسباب الخطإ الذي تسرَّب إلى عامة المسلمين فخيل اليهم ان الخلافة مركز ديني وان من ولي امر المسلمين فقد حل منهم في المقام الذي كان يحله رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١)

« وكان من مصلحة السلاطين ان يروجوا ذلك الخطأ بين الناس حتى يتخذوا من الدين دروعاً تحمي عروشهم ، وتذود الخارجين عليهم .... حتى افهموا الناس إن طاعة الأئمة من طاعة الله ، وعصيانهم من عصيان الله .... وحرموا عليهم النظر في العلوم السياسية وباسم الدين خدعوهم وضيقوا عليهم ... ثم حرموا عليهم كل ابواب العلم التي تمس حظائر الخلافة وكل ذلك انتهى بموت قوى البحث ونشاط الفكر بين المسلمين .... والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية .... ولا شيء في الدين يمنع المسلمين ان يسابقوا الامم الاخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها وان يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلوا له واستكانوا اليهِ »

وغني عن البيان ان الغاية التي وضعها السيد علي عبد الرازق نصب عينيه هي تحرير العالم

من العقبات فيما ينشدون من الاصلاح لان الدين متى كان عمليًّا في روحهِ جعل للمصلحة العامة اعتباراً فوق سائر الاعتبارات

﴿السياسة والدين في القرون الوسطى﴾ من اثمن ما خلفته القرون الوسطى من النظريات السياسية اصرارها على ان تكون الاخلاق عنصراً قويًّا في سياسة الدولة فلا تتجرد اعمال السياسيين من تلك السلطة الوجدانية التي يؤدي فقدها الى ما نعانيه اليوم من السياسة المادية التي لا روح فيها او كما يقال ان السياسة عموماً ولا سيما سياسة البسطة والتوسع لا دين لها . ولكن الناس في تلك الايام افرطوا جد الافراط في ادخال الدين في كل ناحية من نواحي حياتهم فكانوا يأكلون في الدين ويشربون وينامون في الدين فلا جرم ان تكون السياسة ايضاً باباً من ابواب الدين وان تعالج شؤون البشر الدنيوية في فصل من فصوله كما تعالج شؤونهم الاخروية. قال الاستاذ (كول) (١) «وكان الرجل المفكر من اهل القرون الوسطى — وقد بنى مذهبه السياسي على ما تدعيه الكنيسة العالمية من حقها في تسيير الناس على السنّة القويمة — يعالج كل قضية من القضايا السياسية والاقتصادية كأنها قضية اخلاق لاهوتية. ويتجلى هذا الامر في الشؤون الاقتصادية في تلك القوانين المنمقة التي تحرم الربا الفاحش وتعين الاحوال التي يحصل فيها الرجل المسيحي على الربح العادل ، وفي الشؤون السياسية في السعي لاستمداد جميع السلطة التي تتمتع بها الدولة وجميع القواعد التي تقوم عليها الطاعة في الرعية من مشيئة الله كما هي متجلية في التوراة والانجيل وفي الملهمات التي هبطت على قلب الكنيسة فنطقت بها ، وقد تسربل الادراك السياسي الناهض عند اهل القرون الوسطى بسربال الدين الموحى به والقى هذا الادراك على الآراء المقتبسة من ارسطو ومن الشريعة الرومانية اجازة الكنيسة وتصديقها»

﴿نيكولو مكياڤللي﴾ : ومن الرجال الذين نشأوا في اواخر القرون الوسطى وكتبوا في السياسة على طريقة مبتكرة رجل يدعى (نيكولو مكياڤللي) — (١٥٢٧ — ١٤٦٩) وهو صاحب كتاب الامير الذي نقله الى العربية الاستاذ محمد لطفي جمعة — وقد عالج فيه القضايا السياسية بنظريات جديدة لا دخل للدين فيها خلاصتها شرح الطرائق الشيطانية التي تمكن الرجل الطموح من التربع على العروش والقبض على الصوالج فنصح بعض الامراء في ايطاليا بان يسيروا في سياستهم على منهج دنيوي صرف من حيل ودسائس وفتن لم يسبق لها مثيل حتى ان سلطاناً قاهراً عاش في القرن العشرين مثل السلطان عبد الحميد لمّا ترجم له هذا الكتاب استغواه كثيراً فكان يسترشد به في المدلهمات . وفي عقيدتي ان كتاب «الامير» هذا هو الانجيل السياسي الذي تسير عليه الدول المستعمرة في الشرق ، فما من تفريق بين الاهلين وتسليط

(١) لما شرعنا في كتابة معرض المذاهب السياسية وجدنا ان نتبع نفس الطريقة التي سلكها الاستاذ كول من اساتذة جامعة اكسفرد في كتاب « موجز المعارف الحاضرة » وهو من مطبوعات العام الماضي . وقد نقلنا بعض فصوله بنصها وفي غير ذلك تصرفنا تصرفا تقتضيه مصلحة القراء في البلدان العربية . فاقتضبنا وافضنا بحسب المصلحة